مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (٦)

«٢» مناهج الادلة لابن رشد

للاستاذ كمال دسوقي

وإذ فرغ فيلسوفنا من إثبات وجود الله يتناول مشكلة، فبعد تقرير الذات تأتي الصفات، وبعد الصفات الأفعال، وإن كان هذا التقسيم الثلاثي غير ظاهر تماماً كما أن تبويب الكتاب وتوزيع فصوله غير دقيق كذلك. وهو العيب الذي يعتور كثيرا من الكتب الإسلامية القديمة، والذي يحتاج معظمها من أجله إلى معاودة النشر بتبويب وتفصيل جديدين.

والذي ذكره ابن رشد من صفات الله سبع فقط يقول إنها التي وردت في الكتاب — وقد سبق أن قلت لكم إن لله صفات أكثر من هذه تبلغ العشرين من حيث هي ثبوتية، ومثلها مما يقابلها من حيث هي سلبية (تجدونها في كتب التوحيد) وكلها مؤيدة بالآيات القرآنية كالتي ذكرها ابن رشد. ولكن يبدو أن الفيلسوف لا يذكر من صفات الله إلا ما يتصف به الانسان الكامل كما يقول، وأول هذه الصفات العلم، الآية التي يستشهد بها على هذه الصفة تدل أقل ما تدل على أنه ما في المخلوقات من براعة الصنعة ودقة الترتيب بما يوافق الغاية المرسومة لا يمكن أن يكون اعتباطاً — بل لابد من حكمة وتدبير مقصودين صادرين عن علم كامل. وعلم الله صفة قديمة كما هو قديم، وليس بصحيح ما يقول المتكلمون من أنه يتم بالعلم القديم الشيء الحدث وإلا لكان علمه يتنوع؛ أو كان كالشيء تارة يوجد وتارة لا يوجد؛ وهذا ما لا يقتضيه الشرع لأن العلم المتغير محدث — وهو خلاف ما قررنا. والحياة بعد هذا شرط العلم؛ متى ثبت العلم تقررت الحياة وأمكن أن ننتقل مما قام عليه الدليل إلى ما لم يبرهن عليه بعد — ولا اعتراض لابن رشد على ما قال المتكلمون في هذا. والارادة والقدرة لازمتان كذلك لصفة العلم التي سيق إثباتها بالأشياء المخلوقة — وما قيل في العلم يقال في الإرادة من حيث أن كون الشيء الآن ليس بإرادة قديمة كما توهم المتكلمون بل يجب أن يكون حدوث الشيء وقت إرادته؛ وعدم حدوثه رهناً بعدم إرادته كما تقتضي الآية «كن فيكون» ولما كان الموجود الواحد عالماً بما يفعل وقادراً

أن تكون لهم أبا وأماً، ومثل هذا في الدنيا كثير، وأن الرجل الحق من يستطيع إن أصابه سهم من سهام الدهر، أن ينزعه بقوة وعزم، ثم يقف مرة أخرى ليكافح. فلا تترك للخور سبيلا إليك، فضمد جراحك ثم واجه الدهر بثبات وإيمان وصبر، دع الخائنة — يا بني — تلق جزاء خيانتها، فليس أقدر على سجن الإثم والشر من العقاب. وأولادك! ماذا كنت تصنع لو أنها ماتت؟! كنت سترضى بالقضاء النازل وتتدبر أمرك.

ألا فاعلم — يا بني — أن الخائنة ميتة في قاموس الدين والأخلاق والكرامة. ولكن حذار أن يعرف أولادك عن أمهم شيئاً في المستقبل — دعهم يعيشوا دائماً وإلى الأبد على جهل بتاريخها. لئلا تخدش كرامتهم، ويعيشوا أذلاء. فإن سألوك عنها فقل لهم: إن هذه الأرواح — جنود مجندة، فما تعارف ائتلف، وما تناكر اختلف. ويشاء حظ أبيكم ألا يهتدي إلى الروح التي تأتلف إلى الأبد مع روحه، فكونوا أسعد حظاً منه، واستمعوا إلى نصيحتي، ولا تحيدوا عن مشورتي، ولا تخالفوا رأي شيخ كبير مثلي.» قالها أبي — يا صاحبي — والدمع يذرف من مآقيه. وعاد إلى صمته الطويل.

قال لي صاحبي: وهكذا كان فقد تركتها واستمعت إلى رأي الشيخ، وأسكت نوازع الهوى، وأعرضت عن ظلال الأيام وصدى الذكريات، أرى سعادتي بين عملي وأولادي وأردد دائماً قول أبي: «وهل تستطيع المرأة البرزة أن تحبس دم الشباب الفوار عن أن يصرخ في عروقها صرخات شيطانية وضيعة، حين تجلس إلى الرجل في غير رقيبة ولا حذر؟!.»

القاهرة — عمر عودة الخطيب

على فعل ما يريد ؛ فإنه قادر أيضاً على مخاطبة من يريد والكشف له عما بنفسه — وهو الكلام — الذى هو أحرى بالله من الإنسان لكمال قدرة هذا وعلمه وإرادته والكلام إذا كان ولا بد بوساطة اللفظ ؛ فليس من الضرورى أن يكون لفظاً مخلوقاً فقد يوحى إلى من شاء من عباده بكلام نفسى ينكشف به المراد من غير واسطة كما فى آية إسراء النبى ، وقد يكلم فعلا بألفاظ يخلقها ولكن من وراء حجاب ، كما فى مناجاة موسى ؛ وقد يرسل ملكا أو رسولا فيوحى بإذنه مايشاء . والقرآن بهذا المعنى الثالث كلام الله الأزلى القديم ولفظه مخلوق لا يتعدى نصيبُ البشر فيه الحروف المكتوبة بإذنه — بمعنى أنه قديم معنى ومحدث لفظاً . وقد ذهب المعتزلة والأشاعرة مذهباً متضاداً فى هذا : قال المعتزلة إن الكلام فعل المتكلم ، وأنكر الأشاعرة ذلك . فانتهى هؤلاء إلى أن الكلام هو اللفظ ، وأن القرآن حادث ؛ وأولئك إلى أن الكلام النفسى أى المعنى المراد قديم أما اللفظ الدال عليه فحادث . وقد رأينا أن ابن رشد إلى الأشاعرة أميل وإن كان ليقرر أن بعض الرأيين حق وبعضه باطل . والسمع والبصر أخيراً من مقتضيات العلم الكامل أيضاً لأنها وسائل بعض المدركات الحسية التى لا يتم العلم إلا بها والتى تسوغ عبادتنا لعاقل مدرك جدير بالعبادة . وسواء أكانت هذه الصفات كلها زائدة عن الذات (بأن كانت معنوية) كما يقول الأشاعرة أو كانت هى والذات شيئاً واحداً (فيسميها حينئذ نفسية أى غير مفارقة) كما يقول المعتزلة ، فالذى يجب على الجمهور أن يعلم من أمرها هو مجرد الاعتراف بوجودها ؛ وهو ماصرح به الشرع فى نظر ابن رشد .

أما الفصل الرابع ففى الصفات التى يجب تنزيه الله عنها أى الترفع به عن أن يتصف بها . والآيات التى ذكرها المؤلف هنا يريد بها نفى مماثلة الله للحوادث أى نفى صفات المخلوقات عنه أو جعلها فيه على جهة أخرى بأن تكون أتم وأكمل ؛ يجب أن تعلموا بهذه الآيات الدالة على هذا النفى بقسميه : (١) نفى النقائص القريبة كالموت والنوم والنسيان والخطأ ؛ والبعيدة التى ترجع إلى أن « أكثر الناس لا يعلمون » كالقدرة والإرادة مما هو مشترك بين الخالق والمخلوق ولكنه فى الخالق أكمل وأتم . أما صفة الجسمية وإن كان مسكوتاً عن نفيها أو إثباتها ، وبرغم الآيات التى صورتها للحنابلة وغيرهم من هذا النوع الثانى ؛ فإن ابن رشد يرى ألا يصرح فيها بنفى أو إثبات لأدلة ثلاث واضحة ذكرها هو (ص ٦٢ — ٦٣) يؤدى ثالثها إلى مسألتى الرؤية والجهة . وكذلك الحركة فيما يتعلق بموقف الحشر والحساب مما يرى معه ابن رشد ضرورة عدم التصريح للجمهور بنفى الجسمية — كما أراد الشرع — حتى لا تبطل هذه المعانى كلها فى أذهانهم فلا يصدقوا بها وهى من صميم الإيمان وإن أمسك عن تأويلها كما أمسك عن تأويل النفس والبرهنة على أنها ليست بجسم . فإذا كان لا بد أن نجيب على سؤال الجمهور : ما هو الله إذن ! فلنقل لهم إنه نور — كذلك هو وصف الله لنفسه ووصف رسوله له — هذا إلى أن النور أشرف المحسوسات اللائقة بوصف أشرف الموجودات ، وأن موقع الله من بصيرة المقربين كموقع النور من أعين الخفافيش ، وأن النور من الأشياء الملونة هو سبب وجودها بالفعل — كل هذه أدلة يحشدها الفيلسوف على ضرورة الوقوف عند وصف الله بالنور دون أن نخوض مع الجمهور فى نفى الجسمية عنه لكى ينقذ إيمانهم بالجهة والرؤية والحركة وغيرها من المعانى التى يشرع فى تفصيلها .

أما الجهة فيرى ابن رشد أنها وإن أنكرها المعتزلة قد أثبتها الشرع فى الآيات التى ذكرها . فمن الحقائق المقررة فى الأديان جميعاً كون الله فى السماء . ومنها تنزل الملائكة بالوحى والكتب والرسالات وإليها كان الإسراء والمعراج . وليس يلزم عن إثبات الجهة ثبوت المكان فالجسمية كما يحتشى المعتزلة (نفاة الجهة) فالجهة السطوح والأبعاد والأوجه وليست المكان . إذ المكان مايمكن أن يشغله جسم ، ولا يكون السطح مكاناً لشىء إلا إذا جاوره سطح آخر يكون محيطاً به . ولما كان تجاور السطوح لا إلى غير نهاية ؛ فإن سطح الفلك الأخير ليس مكاناً ولا يوجد به جسم ؛ أو — إن وجد به شىء — فهو لا جسمى (ولا يكون خلاء ؛ لأن الخلاء حكمه حكم العدم — لا وجود له فى الواقع وليس أكثر من أبعاد فارغة لا جسم فيها إذا رفعت صار عدماً) والخلاصة أن إثبات الجهة لله واجب بالشرع والعقل ، وأن إبطالها إبطال للشرع (ص ٦٨ — ٦٩) حقاً إن إثبات الجهة مع نفى الجسمية مما يعسر فهمه ؛ ولكن هذه الشبهة لا يفطن الجمهور إليها ولا حاجة بنا إلى تأويلها . فإن أصناف الناس الثلاثة لن يجد جمهورهم وعلماؤهم فيها

تشابها — أما الذين فى قلوبهم زيغ (وهم الأوساط فيما بين العامة والخاصة أى الصنف الثانى) فهم الذين يشكون فيضلون — وهم عند ابن رشد أهل الكلام والجدل (وعدتهم ٧٢ فرقة متأولة ضالة) أما الفرقة الناجية فهى التى سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله فى صراحة لعامة الناس كما فعل الخوارج فالمعتزلة فالأشاعرة فالصوفية وعلى رأس الجميع أبو حامد الغزالى (اعرفوا جيداً نقد ابن رشد لهذا الإمام فانه أكبر خصومه ص ٧٢ — ٧٣) فمثل هؤلاء مثل من بدل الدواء النافع المفيد عموماً الذى وصفه الطبيب الأعظم بدواء تافه مستحدث يضر الأكثرين ، ويؤدى إلى الخلط والتشويش والإخلال بالشريعة والحكمة كليهما (٧٣ — ٧٤) .

والرؤية كذلك أنكرها المعتزلة لقيامها على الجهة القائمة بدورها على الجسمية ولكون المرئى لابد أن يكون فى جهة الرائى ؛ وأراد الأشعرية بين نفى الجسمية وإمكان الرؤية بالحس فجاءت أدلتهم متناقضة ومتخالطية سواء منها ما عاندوا به المعتزلة وما أجازوا به رؤية ما ليس بجسم . ففى المقام الأول عاندوا قول المعتزلة إن كل مرئى فهو فى جهة من الرائى بأن هذا حكم الشاهد لا الغائب — أى المحسوس لا المعقول ، فهنا عند الأشعرية خلط ظاهر بين الرؤية البصرية والإدراك العقلى ، إذ الرؤية البصرية لا تتم إلا بالشىء اللون والحاسة المبصرة والأثير الشفاف . ودليل رؤية المرء ذاته فى المرآة الذى قال به الغزالى باطل لأن الذى يُرى هو الخيال فى الجهة المقابلة . ثم إن المتكلمين (الأشعرية) يدللون على إمكان رؤية ما ليس بجسم (٧٦ — ٧٧) بدليلين : أولهما ما يذهبون إليه من إبطال رؤية الشىء من حيث هو «جسم أو لون» إلى آخره ورؤيته فقط من جهة ما هو موجود — وينقض ابن رشد هذا بقوله إن اللون يُرى بذاته ، والجسم يرى لونه — ولو كان الشىء لا يرى إلا لوجوده لاختطلت الحواس وهو غير معقول .

وثانيهما دليل أبى المعالى فى «إرشاده» الذى ميز فيه بين ذات الشى وأحواله وجعل للحواس أن تدرك الذات فقط أى الشىء من حيث هو موجود — أما أحواله وصفاته المشتركة فلا سبيل إلى أن يدركها الحس . وهذا الدليل يبطله ابن رشد أيضاً بمثل ما أبطل به سابقه من أن الحواس إذن تختلط وتصبح حاسة واحدة ... وإنما كانت هذه الحيرة لافتراض هؤلاء جميعاً نفى الجسمية وهو بعيد عن مقصد الشرع الذى شبه الله بالنور وهو محسوس . والنتيجة إذن أن الرؤية معنى ظاهر ، وأن شبهتها تزول بزوال شبهة نفى الجسمية .

والقسم الأخير من أدلة ابن رشد يتناول الأفعال الإلهية فى خمس أمور وأولها خلق العالم وهو يردد هنا ، كما فى كل مكان ، أن الأدلة لكى توافق الشرع يجب أن تكون بسيطة يمكن أن يسلم بها الجميع ، ومن أجل هذا تبطل أدلة الأشعرية التى يسبق أن أتى عليها فى حدوث العالم ، فليست من مقصد الشرع فى شىء ، وحسبنا لكى نحقق مقصده بمعرفة أن العالم مصنوع لله ومخلوق لم ينشأ من نفسه ولم يوجد بمحض الصدفة ، حسبنا دليل العناية آنف الذكر ، فان موافقة أشياء العالم فى تفاصيلها وجملتها لكائناته الحية كالإنسان والحيوان لا يمكن أن تكون اتفاقاً وصدفة بل بإرادة وقصد . هذا هو الدليل الحق الذى إلى جانب كونه بسيطاً وقطعاً يقيننا هو الذى نبه عليه القرآن (الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ... الليل لباساً والنهار معاشاً . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . ببيان ما فى المخلوقات من ملاءمة ومنفعة . ومن هنا يبين فساد قول الأشعرية وبُعدهم عن مقصد الشرع بإغفال عنصر الإنعام من الله على الإنسان (ص ٨٥) وعنصر ربط المسببات والأسباب لحكمة وتدبير ، فلا تخلو المسببات عندهم أن تكون بالصدفة والاضطرار لا بالأفضل والإجادة والإتقان ، فإذا علمنا أن المصنوعات لا تكون شريفة تماماً حتى لا يكون فى الامكان صنع أبدع منها ؛ فإننا لو أخذنا بغير ما يريد ابن رشد لم تكن للمصنوعات غايات معينة ، وتنفى الغاية المحددة ينفى وجود النظام والترتيب وهذا ينفى بدورة المنظم والصانع الحكيم . أما سبب ضلال الأشعرية فى نظر ابن رشد فهو (١) خوفهم أن يجعلوا أسباباً فاعلة غير الله حتى ولو كانت تفعل بإذنه (٢) أو أن يتساقوا إلى الايمان بالقوى الطبيعية فلا يحسنوا الاستدلال على وجود الله . ومن هنا قالوا إن المخلوقات جائزة الوجود ليجعلوا خالقها مريداً . فأبطلوا الحكمة وافتروا على الله الكذب . ولما كان من العسير إقناع الجمهور بأن عقيدة الشرع فى العالم أنه محدث وأنه خلق من غير شىء غير زمان فان ابن رشد يرى أن نستعين بالتمثل والتصوير بالآيات التى تقرب المعنى إلى الأذهان (ص ٩٠)

(يتبع)

كمال دسوقى